غزوة حُنَيْن

أهل مكة يبايعون الرسول على الإسلام طوعًا لا كرهًا

دخل رسول الله ﷺ مكة فى اليوم العشرين من رمضان، سنة ثمان من الهجرة (يناير سنة ٦٣٠)، وظل بها قرابة عشرين يومًا يرتب شئونها، ويصلح أحوالها، ويخرج بها من جو الشرك والوثنية إلى جو الإسلام والتوحيد؛ فأمر بلالا أن يؤذن فوق الكعبة، فصعد بلال على ظهرها وأخذ يدوى بصوته فى الأرجاء: «الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله. حىّ على الصلاة، حىّ على الصلاة. حى على الفلاح، حى على الفلاح. الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله». ثم أقيمت الصلاة، فقام رسول الله ﷺ يصلى بالناس فى حرم البيت، وقام الناس معه على صفوفهم، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، ويقومون كلما قام ويجلسون كلما جلس.

وكان لهذا المنظر الجليل أثره الفعال فى نفوس المشركين من أهل مكة، فأقبلوا على الإسلام طائعين، واجتمعوا على رسول الله ﷺ يبايعونه على الإسلام؛ فجلس لهم رسول الله على الصفا، وقام دون مجلسه عمر بن الخطاب يأخذ له البيعة على الناس، فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا. فلما فرغ من بيعة الرجال جاء النساء يبايعْنَه على ألا يُشْرِكْنَ بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يَزْنِين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببُهتان يَفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينه فى معروف.. فبايعَهن واستغفر لهن الله. ودخلت بذلك مكة فى حظيرة الإسلام، وعمت الناس روح جديدة من الحرية والإخاء والمساواة.

وكان مما دفع بأهل مكة إلى الإسلام أن رسول الله ﷺ لم يرغم أحدًا منهم على اعتناقه، على رغم ما كان له من القوة والسلطان بعد ظهوره وانتصاره؛ بل تركهم أحرارًا فى اختيار دينهم، فمن شاء أن يسلم أسلم، ومن شاء أن يبقى على دينه بقى عليه؛ حتى إن صفوان بن أمية لما أتى ليسلم قال لرسول الله ﷺ: "أمهلنى بالخيار شهرين"؛ فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أنت بالخيار أربعة أشهر»؛ مع أن صفوان كان من الذين أهدَر رسول الله دماءهم يوم الفتح، لما كان من شدة

عداوته وأذيته للمسلمين. وكان عفو رسول الله عمن أهدر دماءهم يوم الفتح - بعد عفوه الشامل عن أهل مكة - من دوافع الإقبال على اعتناق الإسلام فى مكة، فلم يمض إلا قليل حتى أسلم أهلها جميعًا، ورضوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا ورسولا.

وكان هؤلاء النفر الذين أهدر رسول الله ﷺ دماءهم نحو خمسة عشر، ما بين رجل وامرأة، منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبى جهل ، ووحشى بن حرب قاتل حمزة، وهند بنت عتبة آكلة كبده. وكانوا بين عدو بالَغ فى عداوته للإسلام وفى أذيته للمسلمين، وبين مجرم فر بجريمته من القصاص وارتد بعد إسلامه إلى الكفر. وقد عفا رسول الله ﷺ عن أكثرهم، فلم يقتل منهم إلا ثلاثة رجال وامرأة. وقد ترك هذا العفو أثره فى نفوس هؤلاء النفر فأسلموا راغبين؛ وكان منهم من أبلى فى الدفاع عن الإسلام أحسن البلاء، وجاهد بنفسه وماله فى الله حق جهاده.

الرسول يمحو كل أثر من آثار الشرك فى مكة وفيما حولها

وأخذ صلى الله عليه وسلم يمحو بمكة كل أثر من آثار الشرك والوثنية، فأمر بهدم ما كان حول الكعبة من الأصنام؛

وكان حول الكعبة ـ فيما يقول الرواة ـ ثلاثمائة وستون صنمًا، لكل حى من أحياء العرب صنم؛ فهُدمت الأصنام كلها، ومحيت صور الوثنية ورسومها من الكعبة، وخَلَصت قِبلةُ الإسلام للإسلام وحده.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من أمر الكعبة، وطهرها من كل ما كان يدنسها من آثار العبودية لغير الله عز وجل، أمر مناديًا ينادى فى أهل مكة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنمًا إلا كسره». ولم يكن بمكة بيت إلا فيه صنم يتبرك به أهله، ويمسحونه[1] عند دخولهم وخروجهم؛ فأقبل أهل مكة على أصنامهم يكسرونها، وجعلت هند بنت عتبة تضرب صنمًا لها بالقَدُوم حتى حطمته، وهى تقول: "كنا منك فى غرور"!

ثم بعث رسول الله ﷺ سراياه فى قبائل العرب حول مكة، ليهدموا ما بها من الأصنام؛ فبعث خالد بن الوليد فى ثلاثين فارسًا إلى بطن نخلة، ليهدم بيت «العُزّى» ـ وكانت أكبر أصنام قريش ـ فهدمها؛ وبعث عمرو بن العاص فى جماعة من المسلمين إلى هذيل، لهدم صنمها «سُوَاع»، فهدمه؛ وبعث سعد ابن زيد فى عشرين فارسًا إلى المشلَّل عند ساحل البحر، ليهدم

(١) ويمسحونه: كما يفعل العامة الآن عندما يزورون أضرحة الأولياء تبركًا بها.

«مَنَاة» ـ صنم كلب وخزاعة ـ فهدمه.. وهكذا جعل رسول الله يمحو كل معالم الوثنية والشرك فى مكة وفيما حولها، حتى تذهب آثارها من النفوس، وحتى تتحرك العقول من أوهام التقاليد والعادات، وتخلُص القلوب من كل ما يشوب تعلقها بالله وحده لا شريك له.

أعدت هوازن وثقيف لحرب النبي فبادرهم بالغزو

وكأنما عز على هَوَازنَ وثَقيف أن تدور عليهم الدائرة، وأن ينالهم ما نال قريشًا من تبديل دينها، وتهديم أصنامها، ومن خضوعها لسلطان محمد بعد ما كان من عزها وسؤدُدها.. وكانت ثقيف تقيم بالطائف، وكانت هوازن تجاورها فى جبال هناك حول الطائف. وكانت الطائف أخصب بقاع الجزيرة ومقر عبادة «اللَّات»، أكبر أصنام العرب بعد «هُبَل»؛ فظن أهلها أن محمدًا لا بد منصرف إليهم بعد الفراغ من أمر قريش. فاجتمع ذوو الرأى من هوازن وثقيف، وتشاوروا فيما بينهم، فاتفق رأيهم على أن يبادروا محمدًا بالغزو قبل أن يبادرهم، وأخذوا يستعدون لذلك، ويستعينون بمن حولهم من القبائل، ممن يرون رأيهم؛ فانضم إليهم قبائل نصر وجُشَم وسعد بن بكر وناس من بنى هلال، واجتمع لهم بذلك خلق كثير.. فلما التأم جمعهم جعلوا أمرهم إلى مالك بن عوف النصرى.

وكان مالك فتى حديث السن شديد الحمية، فرأى ألا يخرج بقومه إلى المعركة إلا فى أشد ما يكونون حمية وحماسة؛ فأخرج مع القوم أموالهم ونساءهم وأبناءهم، ليكون ذلك أدعى إلى حماسة الرجال واستماتتهم فى الذود عن حرماتهم. وكان فى القوم دُرَيْد بن الصِّمَّة، وهو شيخ حنكته التجارب وعركته الحروب، ولكنه أسنَّ وهَرِم فلم يعد قادرًا على قيادة الجيوش. فلما سمع بما فعله مالك بن عوف سأله عن ذلك، فقال له مالك: "إنما أردت أن أجعل وراء كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم". فقال له دريد: "وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحت فى أهلك ومالك".. ولكن مالكًا ركب رأسه وأصر على ما رأى، وتابعه القوم على هواه فخرجوا بأهليهم وأموالهم.

وسمع رسول الله ﷺ بما أعدت له هوازن وثقيف، فبعث إليهم عينًا من عيونه ليستطلع له حقيقة أمرهم. فلما تبين له صدق ما عزموا عليه، أراد أن يفاجئهم قبل أن يفاجئوه؛ فخرج من مكة فى يوم السبت السادس من شوال (٢٨ يناير سنة ٦٣٠)، قاصدًا إلى هوازن وثقيف، فى اثنى عشر ألفًا من الرجال: عشرة الآلاف التى جاء بها إلى مكة، وألفان من أهلها وقد شارك أهلُ مكة فى هذه الغزوة، وأمدوا رسول الله ﷺ بما

شاء من المال والسلاح.. أعاره صفوان بن أمية مائة درع - وقيل: أربعمائة - وأسلفه بعض أشراف مكة من أموالهم، وخرج معه ناس من المشركين كثير؛ فخرج الجيش فى مظهر بالغ القوة ظاهر الغلب، حتى ظن المسلمون أن لن يُغلبوا مع هذه الكثرة، وحتى قيل: إن نساء مكة وصبيانها خرجوا وراء الجيش طمعًا فى الغنيمة.

كانت خطة العدو أن يأخذ المسلمين من جوانبهم على غرة فى عماية الصبح

وكانت هوازن وثقيف ومن تابعهم من قبائل العرب قد خرجوا برجالهم إلى وادى حُنَين، وهو واد من أودية تهامة، أجوفُ منحدر، ينفرج بعد طريق جبلى كثير المضايق والشعاب، وينحدر عند مدخله انحدارًا شديدًا. وقد رأى مالك بن عوف أن يعسكر عند مدخل ذلك الوادى، وأن يستغل طبيعة المكان فى تحطيم قوة المسلمين؛ فجعل فريقًا من رجاله فى رءوس المضايق والشعاب، وعبأ بقية الجيش فى جوانب الوادى ومكامنه، وأمر الرماة أن يفاجئوا طلائع المسلمين عند ظهورها بنبالهم، وأن يصبوها عليهم من رءوس المضايق والشعاب حتى يذهلوهم، فإذا أذهلتهم المفاجأة وأخلّت نظامهم، هجم عليهم

الرجال وهم فى غمرة الذهول والاضطراب؛ فيميلون عليهم ميلة واحدة.

هكذا دبر مالك بن عوف خطته - أو لعلها كانت كذلك - وكأنما كان على علم بخطوات عدوه فوضع خطته على أساس؛ فقد ذكرت الروايات أن رسول الله ﷺ انتهى إلى حنين فى مساء ليلة الثلاثاء، لعشر خَلَوْن من شوال؛ فلما كان من الليل، عمد مالك بن عوف إلى أصحابه فعبأهم فى وادى حنين، وأوعز إليهم أن يحملوا على رسول الله ﷺ وأصحابه حملة واحدة. وعبأ رسول الله أصحابه فى السَّحَر، وصفّهم صفوفًا، ووضع الألوية والرايات فى أهلها من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، وجعل خالد بن الوليد على مقدمة الخيل، وانحدر فى وادى حنين على تعبئته.

وكأنما كانت خطة رسول الله ﷺ أن يفاجئ القوم فى عماية الصبح، وهم مأخوذون بنومة البُكرَة، ولم يكن يدرى رسول الله ولا المسلمون أن القوم سبقوهم إلى الوادى، وكمنوا لهم فى شعابه وأحنائه ومضايقه، "وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا"، كما يقول جابر بن عبدالله، رضى الله عنه.

العدو يفاجئ المسلمين بخطته فيرتدون أمامه فى اضطراب وفوضى

وفى غَبش الصباح تحرك المسلمون، فسارت مقدمتهم من الفرسان تحت إمرة خالد بن الوليد، ومن ورائهم سارت كتائب الجيش، ومن وراء الجيش سار رسول الله على بغلته البيضاء، وقد لبس لأمة الحرب وظاهر[1] فيها بين درعين، ومن حوله رجال من الصحابة، فيهم عمه العباس بن عبد المطلب. فما كادت طلائع الجيش تنحط فى مدخل الوادى، حتى فوجئوا بالسهام تنحط عليهم فى الظلام من كل فج، فما يدرون أمن السماء تأتى أم من الأرض.. فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ولم يجدوا لهم بدًّا من الارتداد، وكان ارتدادهم مفاجئًا وعلى غير انتظام.. وانتهز العدو هذه الفرصة فهجم بخيله ورَجِله، وامعن فى ظهور المسلمين طعنًا وضربًا، حتى استحَرَّ القتل فى بنى نصر بن معاوية، ثم فى بنى رئاب فشاع الاضطراب فى الجيش، وسرت فى صفوفه عدوى الهزيمة، فجعل الناس يتراجعون ويتدافعون فى غير وعى.

---

(١) ظاهر بين درعين: لبس درعًا فوق درع.

الرسول يثبت ويهيب بالناس أن يرجعوا

فلما رأى رسول الله ﷺ هذا الهلع، ورأى الناس يتدافعون والإبل يحمل بعضها على بعض، جعل يصيح بالناس: «أين أيها الناس؟.. هلموا إلىّ!.. أنا رسول الله!.. أنا محمد بن عبدالله!..»

أنا النبي لا كذِبْ أنا ابن عبد المطلب

والناس فى هلعهم لا يسمعون ولا يعون، ولا يلوون على شيء مما يحيط بهم، حتى انكشفوا عن رسول الله ﷺ، فلم يبق معه إلا نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

وكان العباس بن عبد المطلب رجلا جَهِير الصوت، فأمره رسول الله ﷺ أن يهيب بالأنصار والمهاجرين ليرجعوا، فجعل العباس يصرخ: "يا معشر الأنصار الذين آوَوْا ونصروا، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، هلموا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم"!.. فما كادوا يسمعون الصراخ حتى انقلبوا يتواثبون إلى رسول الله قائلين: "لبيك لبيك"!.. حتى إن أحدهم لَيترك بعيره لما يعوقه من تدافع الناس، ويسرع إلى رسول الله ﷺ راجلا ومعه سيفه وتُرسه.

واجتمع حول رسول الله ﷺ طائفة من الرجال الصادقين فى عزائمهم وفى إيمانهم، فصمدوا فى وجه العدو حتى صدوا هجومه، ثم ترادف المسلمون وتتابعوا، وشد بعضهم أزر بعض حتى تماسكوا والتأموا. وكان الصبح قد أسفر وانكشفت لهم مواقع العدو، فحملوا عليه حملة رجل واحد. فتفرقت جموعه فى كل ناحية؛ وتابع المسلمون فلول العدو يطاردونها حيث ذهبت، حتى قُتل من قتل، وأُسر من أسر، وفر من فر.. أما مالك بن عوف فقد فر إلى حصون الطائف فاحتمى بها، وترك وراءه كل ما ساق من الأموال والأنعام والنساء والبنين، فغنم المسلمون شيئًا لا يكاد يحصيه العدد.

الرسول يتتبع العدو إلى الطائف بعد أن شتت جموعه فى حنين

وأمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال فجمعت وسيقت جميعها إلى وادى «الجِعِرَّانَة»، ثم توجه بأصحابه إلى الطائف، حيث فر مالك بن عوف بمن نجا من رجاله ومن رجال ثقيف. وكانت ثقيف قد تحصنت بحصونها وغلّقت أبوابها، وتزودت بكل ما تستطيع من مئونة وسلاح، واخذت أهبتها لحصار طويل الأمد، إن أراد محمد أن يحاصرهم. وكان رجال ثقيف ذوى

خبرة بقتال الحصون، فأجمعوا أمرهم على الدفاع عن حصونهم بكل قواهم، وعلى إحباط كل محاولة يحاولها المسلمون للوصول إليها.

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، ورأى أهلها قد اعتصموا بحصونهم، أراد أن يستَأنِيَ بهم لعلهم يسلمون دون قتال؛ ولكنه ما كاد يدنو من حصون الطائف حتى أمطره الرماة وابلا من السهام، فقُتل طائفة من المسلمين وجرحت طائفة، فابتعد رسول الله بأصحابه عن مرمى السهام، ثم ضرب عسكره حول الحصن، وحاصرهم بضعًا وعشرين ليلة.

حاول المسلمون بكل وسيلة أن يخرجوا الأعداء من حصونهم فلم يستطيعوا

وفى خلال هذه المدة جعل المسلمون يتخذون الوسائل لإخراج المشركين من حصونهم فلم يستطيعوا. طلبوا إليهم أن يخرج رجال منهم ليبارزوهم فأبوا أن يخرجوا، فعيروهم بالجبن والفرار فلم يأبهوا بهم، فنصبوا عليهم المجانق يرمونهم بالحجارة فلم ينل ذلك منهم؛ فدخل رجال من المسلمين فى دبابة[1]، ثم

---

(١) كانت الدبابة فى تلك العهود فى أبسط مظاهرها، وكانت تتخذ من الخشب ليحتمى بها الجنود وهم ينقبون الحصون.

زحفوا إلى جدار الحصن ليخرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف قطع الحديد المحماة بالنار فأخرجتهم من تحتها، ثم رمتهم بالنبل فقتلت منهم رجالا؛ فأخذ المسلمون يقطعون أعنابهم، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يتركها لله وللرحم، فنهى المسلمين عن قطعها..

وهكذا حاول المسلمون بكل وسائلهم أن يخرجوا المشركين من حصونهم، أو يقتحموها عليهم، فلم يستطيعوا. فأمر رسول الله ﷺ أن ينادى فى عبيد ثقيف: «من خرج إلينا فهو حر». فلما سمع العبيد هذا النداء تسلل منهم بضعة عشر رجلا، فأعتقهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

الرسول يفك الحصار عنهم ويتركهم لعل الله يأتى بهم

وعلم رسول الله ﷺ من أولئك العتقاء أن ثقيفًا تزودت فى حصونها بزاد سنة، وأنهم عازمون على البقاء فيها حتى ينفد زادهم، ثم يدافعون عنها بعد ذلك حتى لا يبقى منهم رجل. فرأى رسول الله أن لا فائدة من طول الحصار، وأن العدو قد انكسرت الآن شوكته وأمن شره، وأنه قد صار فى محبسه ذاك كثعلب فى جحر، إن أقام عليه أخذه، وإن تركه لم يضره.. وكانت الأشهر الحرُم قد آذنت وأوشك ذو العقدة أو أهلّ، فآثر

الرسول أن يرحل بأصحابه ويترك هذا العدو إلى حين، فلعل الله أن يهديه فيأتى إليه مسلما طائعًا. وهكذا كان، وتحقق لرسول الله ما تمنى، فلم تمض إلا بضعة أشهر حتى أذعنت ثقيف، ودخلت فى دين الله راضية مستسلمة.

الرسول يتألف قلوب السادة من قريش بالعطاء الجزل ليسلموا

أما رسول الله ﷺ وأصحابه فقد قفلوا راجعين إلى «الجعرانة»، حيث حُبست غنائم يوم حنين؛ وهنالك أمر رسول الله بإحصائها، فكانت أربعة وعشرين ألفا من الإبل، وأربعين ألفا من الغنم، وأربعة آلاف أوقيّة من الفضة، وستة آلاف من النساء والبنين. فاستأنى رسول الله بالسبْى، وبدأ بالأموال فقسمها بين الناس، فكان نصيب الراجل أربعة من الإبل وأربعين شاة، ونصيب الفارس ثلاثة أمثال ذلك.

ولما كانت النفوس بطبيعتها طُلَعَةً إلى المال، وكان البذل والعطاء مفتاحا من مفاتيح القلوب، ومدخلا من مداخل النفوس، فقد أجزل رسول الله ﷺ العطاء لنفر من أشراف قريش ومن سادات العرب وأمرائها، يريد بذلك أن يتألف قلوبهم إلى الإسلام. فقد علم صلى الله عليه وسلم أن كثيرًا ممن

أسلم من هؤلاء السادة، لا يزال حديث العهد بجاهليته، وأن كثيرًا ممن لم يسلم إنما خرج طمعًا فى الغنيمة، فما زال يستعين على تأليف قلوبهم بالعطاء، حتى أسلم من لم يكن أسلم، واطمأن إلى الإسلام من كان قد أسلم.

جاء فى إمتاع الأسماع أن أبا سفيان بن حرب جاء إلى رسول الله ﷺ والفضة بين يديه فقال: "يا رسول الله، أصبحت أكثر قريش مالا".. فتبسم ﷺ؛ فقال أبو سفيان: "أعطنى من هذا يا رسول الله".. فقال: «يا بلال، زِنْ لأبى سفيان أربعين أُوقيَّة، وأعطوه مائة من الإبل». فقال أبو سفيان: "ابنى يزيد".. قال: «زِنُوا ليزيد أربعين أوقية، وأعطوه مائة من الإبل». فقال أبو سفيان: "ابنى معاوية يا رسول الله".. قال: «زن له يا بلال أربعين أوقية، وأعطه مائة من الإبل». فقال أبو سفيان: "إنك لكريم، فداك أبى وأمى! والله لقد حاربتك فنعم المحارَب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالَم أنت! جزاك الله خيرًا"!

ورُوِى أن رسول الله ﷺ أعطى صفوان بن أمية يومئذ مائة من الإبل، ثم مائة، ثم مائة.. ثم رآه يرمق شعبًا مملوءًا نَعَمًا وشاء فقال له: «أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب»؟ فقال: "نعم". فقال: «هو لك بما فيه». فقال صفوان: "إن الملوك

لا تطيب نفوسها بمثل هذا.. ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نبي! أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله".

خفيت حكمة الرسول على فريق من الناس فظنوا به الظنون

وقد خفيت على كثير من الناس حكمة رسول الله ﷺ فيما غمر به المؤلفة قلوبهم من هذا العطاء، حتى قال بعض الرجال: "إن هذه لقسمةٌ ما عُدل فيها، وما أُريد بها وجه الله".. فغضب رسول الله حين علم بذلك وقال: «ومن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحم الله موسى، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر»!.. وحتى خشي الأعراب أن يذهب أولئك السادة بالأموال، فاتبعوا رسول الله يقولون: "يا رسول الله، اقسم علينا فَيْئَنا".. فما زالوا به حتى ألجئوه إلى شجرة فانتزعت عنه رداءه. فقال صلى الله عليه وسلم: «أدُّوا عليّ ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نَعَمٌ لقسمتها عليكم، ثم لا تجدوني بخيلا ولا جبانًا ولا كذابًا»!.. ثم أخذ وبَرَة من سنام بعير فرفعها بين إصبَعَيْه وقال: «والله مالي من فَيْئكم ولا هذه الوبرة، إلا الخمس.. والخمس مردود عليكم».

كما خفيت على الأنصار فوجدوا عليه فى أنفسهم

وقد خفيت هذه الحكمة على الأنصار أنفسهم، حتى جعلوا يتهامسون القول فيما بينهم.. فعن أبى سعيد الخُدْرِى قال: «لما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وفى قبائل العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شىء، وَجَد[1] هذا الحىُّ من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: "لقى - والله - رسول الله قومه"!.. فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: "يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم، لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت، فقسمت فى قومك، وأعطيت عطايا عظامًا فى قبائل العرب، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء". قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «فأين أنت من ذلك يا سعد»؟ قال: "يا رسول الله، ما أنا إلا من قومى". قال: «فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة».

تربية عالية

فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة، فأتاهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله

---

(١) وجد: أسروا الغضب.

ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قَالَةٌ بلغتنى عنكم، وجِدَةٌ وَجَدتموها علىّ فى أنفسكم؟.. ألم آتكم ضُلّالا فهداكم الله، وعَالَةً[1] فأغناكم الله، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم»؟ قالوا: "بلى، والله ورسوله أمَنُّ وأفضل"!..

ثم قال: «ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار»؟.. قالوا: "بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المَنُّ والفضل"! قال صلى الله عليه وسلم: «أما - والله - لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم وصُدِّقتم.. أتيتَنا مكذَّبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلا فآسيناك[2].. أوَجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لَعَاعَة[3] من الدنيا، تألفت بها قلوب قوم ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟.. ألا ترضوْن يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار!.. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»!.. فبكى القوم حتى أخْضلوا لحاهم[4]، وقالوا:

---

(١) عالة: فقراء.

(٢) عائلا: فقيرًا، آسيناك: أعناك بمالنا.

(٣) لعاعة: شىء يسير.

(٤) أخضلوا: بللوها بدموعهم.

"رضينا برسول الله قَسْمًا وحظًّا"!

وكان هذا درسًا بليغًا من دروس التربية العالية، ألقاه رسول الله ﷺ على أصحابه؛ فى أنسب الأوقات وأصلحها للانتفاع بالدرس، فارتفع بهم إلى مرتبة عالية من مراتب السمو الإنسانى، تعلو بهم على المال، وعلى الجاه، وعلى كل ما يتكالب عليه الناس من متاع الحياة الدنيا.

الإيمان هو السلاح الأول للمؤمن

وكما كانت الغنيمة فى حنين درسًا من دروس التربية العالية لخاصّة المسلمين، كانت الهزيمة فيها درسًا من دروس التربية العالية لعامّتهم؛ فقد خرج المسلمون إلى هذه الغزوة بعد أن فتح الله عليهم أغلاق مكة، وبعد أن أذل لهم كبرياء قريش، وبعد أن ملّكهم أمر البيت الحرام، وأمكنهم من نواصى العرب، وأوشكت الجزيرة كلها أن تَدِين بدينهم، وتخضع لسلطانهم.. خرجوا وهم فى فَوْرَة الفوز بكل هذا، وفى سَوْرَة العُجْب بما كانوا عليه من كثرة العدد وقوة العتاد، ونظروا إلى كثرتهم فأعجبوا بها، واطمأنوا إليها، وظنوا أنها كل شىء؛ فأراد الله أن يعلمهم أن الكثرة قد تخدع، وأن القوة قد تخون، وأن النصر بيد الله وحده، وأن سبيله وأساسه إنما هو صدق الإيمان بالله

وحسن الاعتماد عليه، وأن الكثرة والعتاد والتعبئة والنظام وما إليها، مما ينبغى أن يتزود به المسلمون من أسباب القوة... إنما تقوم على هذا الأساس وتستمد من هذا المعين.

لقد بلغ المسلمون فى هذه الغزوة كثرة لم يبلغوها قط، فهل أغنت الكثرة عنهم شيئًا؟ ها هم أولاء على هذه الكثرة مهزومون، يتدافعون أمام عدوهم تدافع السيل، ويتكَبْكَبون تكبكُب الأنقاض من البناء الشامخ، حين ينهار أعلاه على أسفله، حتى شمت بهم الشامتون، وقال قائلهم: "ألا بطل السحر اليوم، فلا تنتهى هزيمتهم دون البحر".. ولكن شيئًا واحدًا أنقذ الموقف، هو هذه الفئة القليلة التى لاذت بإيمانها، وأحاطت برسول الله، صلى الله عليه وسلم، فجعل يمدها بثقته ويقينه، ويتجه بقلوبها ونفوسها إلى الله القوى، لتستمد منه العون والقوة. فلما أخلصت هذه الفئة القليلة قلوبها ونفوسها لله، وأحسنت الصلة به والالتجاء إليه، جاءها المدد سريعًا، فانقلب ضعفها قوة، ويأسها بأسًا، وهزيمتها نصرًا مؤزرًا.

حقيقة خالدة ينبغى أن يعرفها المسلمون اليوم

وهكذا ركن المسلمون إلى أنفسهم ساعة من نهار، فوكلهم الله إلى أنفسهم، فكانت الهزيمة على كثرة العدد وقوة العتاد؛

فلما رجعوا إلى ربهم واستعانوا به، جاءهم العون والتأييد والمدد القوى، فكان النصر الكريم والفوز العظيم: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[1].

هكذا قال الله فى المسلمين يوم حنين وألقى عليهم ذلك الدرس العملى، فاتعظوا به وتعلموا منه؛ فهل يدرك المسلمون اليوم حقيقة حالهم؟ وهل يشعرون بمبلغ ضعفهم أمام أعدائهم؟ وهل يعرفون السر فيما هم عليه من ضعف على كثرة ما هم عليه من عدد؟.. إن هذا السر واضح وضوح الشمس، ولكن المسلمين يُغْمِضون عنه أعينهم، ويدفنون رءوسهم فى الرمال ليستخفوا منه؛ فقد هجر المسلمون دينهم، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، فغدوا كزرع غاض ماؤه، وانقطع عنه غذاؤه، فأصبح هشيما تَذْرُوه الرياح.

إن المسلمين اليوم لَكثير، ولكنهم كثرة لا غناء فيها؛ فأينما نظرت وجدتهم أمما مغلوبة على أمرها، يتحكم فيها أعداء دينهم، ويستمتعون دونها بخيرات أوطانها، ويسخرونها فى منافعهم

(١) سورة التوبة آيتا ٢٥، ٢٦.

كما تسخر العبيد، ويتحكمون فى شئونها تحكم السادة، ويعقدون لذلك المؤتمرات ويبرمون العهود، وأصبحوا وكأنما يعنيهم الشاعر القديم بقوله :

ويُقْضَى الأمرُ حين تغيب تَيْمٌ ولا يُستأذَنون وهم شهود

وهكذا تحقق فى المسلمين قول الرسول الأمين : «يوشك أن تَدَاعى عليكم الأمم كما تداعى الأكَلَةُ على القِصاع..» قالوا : أمن قِلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال : «لا، بل أنتم حينئذ كثير، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيل»[1].

إن موقف المسلمين اليوم فى كثرة عددهم وغَلَبهم لأعدائهم، شبيه بموقف المسلمين يوم حنين، إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا؛ ولكن المسلمين يوم حنين أفاقوا من غشيتهم، وسارعوا بالرجوع إلى ربهم فسارع إليهم نصره وتأييده. أما المسلمون اليوم فلا يزالون يغطون فى النوم، ويمعنون فى البعد عن سواء السبيل.. فهل آن الأوان لأن يستيقظ المسلمون من نومهم، ويفيقوا من غفلتهم، ويَصِلوا ما بينهم وبين ماضيهم المجيد، وعزهم السالف، وأيامهم الغُر الميامين؟.. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا

(١) غثاء السيل : ما يحمله من القش والحطب وما إليها.

يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1] ؟

لعله قد آن الأوان، ولعل هذه اليقظة التى أخذت تدب فى العالم الإسلامى بشير فجر جديد، ومطلع من مطالع النور لهذه الأمة الحائرة، يخرجها من الظلمات ويهديها إلى الطريق، ويقفها على ما أودع الله لها فى دينها من ذخائر القوة والعزة والسعادة؛ فتقوَى به بعد ضعف، وتَعِز بعد ذلة، وتسعد بعد شقاء.. !

الرسول يرد على هوازن أموالها وأهليها

ولما فرغ رسول الله ﷺ من تقسيم السبى والأموال جاءه وفد هوازن مسلمين، يرجون أن يرد عليهم أموالهم وأهليهم، فخيَّرهم رسول الله بين السبى والأموال، فاختاروا أبناءهم ونساءهم. فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : «إن هؤلاء القوم جاءوا مسلمين، وقد كنت استأنيت بسبيهم، وخيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئًا؛ فمن كان عنده من سبيهم شىء، فطابت نفسه أن يرده، فسبيلُ ذلك، ومن أبى فليرد عليهم، وليكن ذلك قرضًا علينا، فله بكل إنسان ست فرائض من أول ما يُفىء الله

(١) سورة الحديد الآية ١٦.

علينا».. قالوا: "رضينا وسلمنا".. فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، ولم يتخلف منهم أحد غير عُيَيْنة بن حصن، فإنه أبى أن يرد عجوزًا صارت فى يده منهم، ثم ردها بعد ذلك.

وسأل رسول الله ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف، فعلم أنه لا يزال بالطائف مع ثقيف؛ فطلب إليهم أن يبلغوه أنه إن أتاه مسلمًا رد عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل. فلما علم مالك بوعد رسول الله، تسلل من وراء ثقيف، وأتى رسول الله مسلمًا. فأعطاه رسول الله ما وعده، وأمَّره على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفًا ويغير على سَرْحهم حتى ضيق عليهم.

عودة الرسول إلى المدينة

ولما فرغ رسول الله ﷺ من أمر الغنائم خرج من الجعرانة معتمرًا، وذلك فى ليلة الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة مضت من ذى القعدة، فأحرم بعُمْرة، ودخل مكة فطاف وسعى وحلق رأسه، ثم رجع إلى الجعرانة من ليلته.

واستخلف رسول الله ﷺ على مكة عَتَّاب بن أُسَيْد، وخلَّف معه معاذ بن جبل يفقِّه الناس فى الدين ويعلمهم القرآن. وكان عتاب فتى فى نحو العشرين من عمره، لكنه كان

ورِعًا تقيًّا، فأهَّله ورعه وتقـواه لأن يـكون أميـرًا على مـكة أم القرى، على حداثة السن وغضارة العـود، فـاستعمله رسـول الله ﷺ عليها، وجعل له كل يوم درهمًا؛ فكان عتـاب يقـول: «أجاع الله كبد من جاع على درهـم! لقـد رزقـنى رسـول الله درهماً كل يوم، فليست بى حاجة إلى أحد»..

ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعًـا إلى المدينـة، فقـدمها فى آخر ذى القعدة، أو فى مستهل ذى الحجة، سنة ثمان.. وهكذا انتهت سنة ثمان بفتح مكة، وزالت العقبـة الـكئود الـتى طـالما سدت الطريق وعاقت السير، فانبعث الإسلام بعـدها فيـاضًا فى أرض الجزيرة، وانطلق يغمر كل ناحية من نـواحيها، كما يغمـر السيل الدافق جديب الأرض، فيغمرها بالرى والخصب والنَّماء.

وأقبلت السنة التاسعة فأقبلت معها وفود العرب مـن أنحـاء الجزيرة، تـأتى طـائعة إلى المدينـة، لتعلن إلى رسـول الله ﷺ إسلامها وطاعتها، وتدخل فى دين الله راضية مطمئنة.